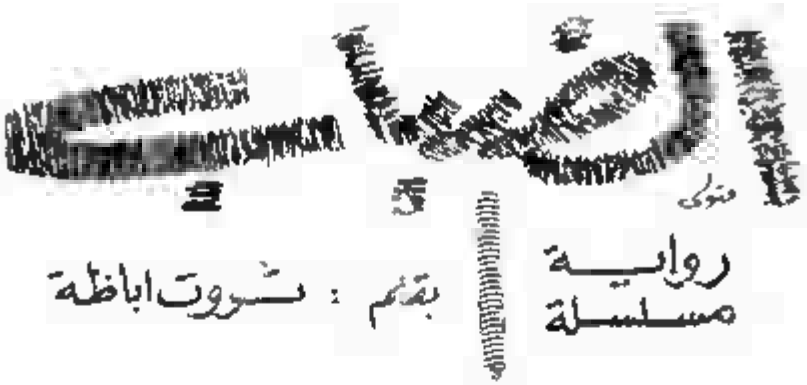

- ١٨ -

ان له لنعمة حلوة قريبة الى النفس ، يصبو اليها القلب في تحاوب حقيق ، عذب هو ، لاتملك الاذن اذا سمعته الا ان تميل اليه في حنين ، يملك على الانسان مشاعره جميعا فكأنما الدنيا لم تخلق الا ليسمع الانسان فيها الشعر . يقولون ان للخمر نشوة فما نشوتها اذا قيست بنعمة الشعر الجميل الحرس الحلو الاداء . فالقلب حين يصغي اليه وجيب ، والعين دمعة حائرة تنطلق عن سعادة غامرة وعذابة تتماوج في النفس جميعها .

هكذا أحب حسين الشعر ، فحياته منذ أحبه شعر ، وليس غير الشعر ، يستمير الدواوين من مظانها جميعا ، ويحفظ العروض فيجيد حفظه ، ويحفظ المنظومات الازهرية جميعا في سهولة ويسر ويحب شواهد النحو التي يصدق بها اخوانه من الازهريين ، شعر ، اصبحت آفاق حياته كلها شعرا ، ولكن آماله في ان يصبح شيخا للوعظ لم تبرح نفسه ، فهذا أمل راسخ في بعيد نفسه ليس له عنه حول ولا مصرف .. آمال الصبا الباكر والطفولة الحالمة ، الحمة والعطفان والعمام والنساء والرجال وعصبة ، وخاصة عصبة ، يصلون بده ومن يدري فقد يأتي يوم يصلون فيه طرف الجبة .. الحمراء ، أو غير الحمراء .. وان كان لاباس بالحمراء واقول شعرا . شعرا في الصوفية .. في حب الله .. فانه لايجوز لشيخ مثلي ! يقول في غير حب الله .. ولكنه شعر جميل ، يستثير مكامن الدموع ويداعب حواء الاشجان ويحمل النفس تثوب الى الايمان من حب الله والتعالي في ذاته العليا سبحانه ، وكانت يد الشيخ اليمنى تداعب قطته وهو مستلق على السرير نار لآماله الحرية ان تفعل به ماتشاء .. والتفت الشيخ الى نفسه والى يده تداعب هر القطة الناعم ويده الاخرى تمسح دمعة عن عينه ، وحيد .. وحيد .. ليس الا القطة ، الم الصدف عن صاحبة البيت . لكم عرضت عليك ان تطف لك الحجر او تغسل لك الملابس ولكنك ابيت في اصرار . بل انك حتى رددت الطعام الذي ارسلته اليك مع الخادمة الصغيرة .. استغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم ولكني وحيد .. اتصلح هذه الكلمة بداية قصيدة .. او تكون مثل هذه القصة

صالح المنصوف .. لابد أن اقول في الحب العنيف او في المشاعر الانسانية العميقة هي الدنس والعياذ بالله .. فالوحدة موضوع لاناس لهم اتراك لو كنت القصيدة تمتدح الوحدة ام تراك تقول ما تجده فيها مر بؤس وضياع .. ما هي الا سنوات قليلة .. نعم .. نعم .. تصبر نفسك .. انها هي سنوات قلائل وتصبح وحدتك شملا مجتمعا .. انت وصبية .. نعم انك تريدها زوجة .. صبية .. تلك السن .. الفتاة التي تريدها ان تقبل يدك أو طرف جبتك .. نعم فانه لارضائه في الاسلام .. اريد ان اخترف الوعظ واتروح واتحب البنين والبنات .. واعوض نفسي عن الوحدة الطويلة التي عاشتها .. طويلة .. طويلة هي الوحدة .. القطة الوقت المتثاقب .. رائحة الركود .. الرمن المتجمد .. الضياع في طوفان الفراغ دوامه الصمت .. لاحس الا تسبيح القطة ، لارائحة الا انفاسها كأنها انفاس الملل والضيق والضياع ، لاعمل الا الانتظار لمجهول وذكريات من الماضي اضيق بها من كثرة ما تذكرتها وآمال في المستقبل اكاد ارهدها لهذا الرمن الطويل الذي يفصل بيني وبينها .. مروعة هذه الوحدة .. لا .. لاشيء يصنعها الا نفسها .. الوحدة .. لاسلاح عن الشريرة المتناوحة حولك .. البعد عن دوامة الحياة ، العزلة كانك عمل سيء .. القطة وأنا . وفجاة وجد القطة تضطرب تحت يده وتقفز فتهوى يده الى السرير ويحتفب نظره عن الحائط الذي اطال اليه النظر يريد أن ينظر الى مكان القطة فيجد جسم انسان .. امراة .. انها مفيدة زوجة صاحب البيت وينظر الى الباب فيجده قد اقفل والى القطة فيجدها مقعية عند الباب تنظر اليه وكأنها تنتظر ما هو فاعل ويعود الى المرأة ثم يثوب الى نفسه ثم ينتفض من مكانه يريد ان يقوم وهو يقول « اهلا » داعله دهشة خائفة وقبل ان يقوم تدفعه يد المرأة في

حرأة .

ـ نعم .

ويرتمي مكانه

ـ لماذا ؟

ـ الام تظل حائرا ؟ .

ـ نعم .

ـ يارجل اصبح من يومك .. اصبحت رجلا .

ـ نعم .

واطبقت شفتيها على شفتيه ، والتهبت حواسه وحين احلت سبيل فمه وحدته ووجد نفسه يقول

ـ حرام .

فاطبقت على شفتيه مرة اخرى وحين تركته قال مرة اخرى

ـ حرام

وقامت المرأة الى حانبه وهو لايتوقف عن القول

ـ حرام .. حرام .. حرام .

اقام صلاة الفجر حاضرة ثم تناول افطاره وراح يذاكر بعض الحين ثم لبس

ملابسه ومد يده ليتناول العمامة فاحس يده كانها تريد أن ترتد عن العمامة دون أن تأخذها حتى اذا استجمع قواه اخطف العمامة الى رأسه فاحس كانهـا اطواق من حديد تضغط على رأسه حتى لتكاد رأسه ان تنفجر . ليست هذه هي العمـامة التي يعهدها . لا ولا هي التي يتيه بها عجبا . ماذا دهى العمامة . ماذا الم بها .

خلع ملابسه وعاد الى الحمام مرة أخرى وراح يسكب مزيدا من الماء على جسمه، وانهمر الماء وانهمر حتى اذا خيل الى حسين انه يستطيع ان يلبس عمـامته دون ان يضيق بها او تضيق هي على رأسه خرج من تحت الماء وعاد الى غرفته . وقبـل ان يجفف الماء عن جسمه افرج الباب عن مفيدة .

ولم يلبس حسين العمامة . لا . ولا ذهب الى الازهر في يومه هذا .

لم تعد علوم الازهر تعنيه . انما كان يهتم بالشعر فيها فقط وهو منذ عرف مفيدة اشتد انصرافا عن العلوم الدينية . وكان يحس انه غير متلائم مع ملابسـه ولا مع المستقبل الذي يعد نفسه له . حتى لقد اخذ يتجه بآماله الى افاق اخرى غير الافق الذي كان قد رصد له حياته .

ولكنه مع ذلك مضطر ان يظل على عهده من لبس الجبة والقفطان والعمامة وان كان في داخل نفسه يخلع العمامة والجبة والقفطان . لم يعد يعنيه ان يقول شعرا في الصوفية وانما اصبح يعنيه أن يقول شعرا . أي شعر .. فهو يقرأ .. ويقرأ . وطاب له العيش مع مفيدة ومع آماله العريضة أن يصبح شاعرا . ولـكن هاجسا مايلبث أن يهجس في نفسه .. ماذا يفعل به الحاج والي ان هـو اتجه الى الشعر ولم يتجه الى ما أراده لنفسه من تعليم ديني .. وماذا يمكن ان يفعل الحاج والي .. بل ماذا يمكن أن أفعل أنا اذا غضب علي الحاج والي .. ضائع انا شريد .. ابليس الزلق من غير أبي .. بل من رجل لاتربطني به صلة الا الفضل منه والفقر مني ورغبته أن يفتخر أمام الناس انه يغدق على عطفه ورغبتي أنا في ان اتعلم وان بذلت في سبيل ذلك كرامتي وماء وجهي .

وليس لي اليوم محيد عن التعليم ، والا فابن ارثي وجهي من العالم .. لات حين .. لابد ان اكمل تعليمي حتى اجد ما اقتات به وليفعل بي الحاج والي بعد ذلك ما شاء ، انما بيني وبينه ان انال شهادة .. اي شهادة .. لا حاجة بي أن تكون الشهادة العالمية .. فماذا يمكن أن تكون ان لم تكن العالمية .. وتدخل مفيـدة وينقطع حسين عن التفكير .

— ١٩ —

فرغ الحاج والي من صلاة العصر ، وتربع على السـجادة وراح يتمتم على مسبحته ، وكان ابنه محمد جالسا امامه ، وراح الحاج ينظر الى ابنه بينما كان محمد مشغولا بالمذاكرة . واحس محمد نظرات ابيه فالتفت اليه ، والتقت ابتسـامتان لامعتان لهما . وأطال الأب النظر الى ابنه ، وظل الابن راميا الى ابيه حتى انتبه الحاج والي ونكس رأسه الى السجادة .. ايحرمني حتى من متعة النظر اليه . ماضر لو تظاهر بانه غير منتبه الى واتاح لي فرصة اطول من النظر اليه .. راحة ومدوء يشيعان في نفسي اذا نظرت اليه لا أدري لهما سببا .

وعاد محمد الى المذاكرة انه في طريقه الآن الى البكالوريا يتحسس طريقه الى الشباب في خطى معتبرة يحدوها شوق عارم لمجهول من الحياة .

وعاد الاب ينظر الى ابنه وفكر وما كان يحاجه الى التفكير .. كان قد أعد له المستقبل جميعا لم يعمل منه سيئا .. لا ، هو لايريد أن يشق صـــبر العيش عن مستقبل ولده فهو يعلم هذا المستقبل ويعده في اناء ونفه واطمئنان .

وقد ترك الابن لابيه زمام مستقبله يخط فيه ماشـــاء أن يخط ليس له من اعتراض عليه بل انه حتى لا يفكر أن يكون ذا رأى في مستقبله .

ـ كبرت يا محمد .

ـ اطال الله عمرك يا ابا .. البركة فيك .

ـ اذا نجحت هذا العام .

ـ سأنجح يا ابا .

ـ ستذهب الى مصر .

ـ ان شاء الله .

ـ لقد اتفقنا على الكلية .

ـ الطب .

ـ ولكن هناك أشياء لم نتفق عليها .

ـ انا تحت أمرك

ـ امتحانك بعد اسبوع .

ـ نعم .

ـ عندما ينتهي من الامتحان نتكلم ....

وقام الحاج والى عن السجادة وذهب الى حجرة نومه فوجد الحاجة نبيـــه مستلقية على الفراش غير نائمة .

ـ هل انت نائمة ياحاجة ؟

ـ لا أبدا .

وجلس الحاج والى على الاريكة وثنى رجلا الى جسمه وأخرى الى الهواء وقال .

ـ آن لك أن تفرحي بمحمد .

ـ ماذا ؟

ـ انك ياحاجة بيه ، وهل له أم غيرك ؟ .

ـ وكيف افرح به ؟

ـ اريد أن ازوجه قبل ان يذهب الى مصر .

ـ تزوجه وهو تلميذ !

ـ تلميذ في الطب ...

ـ أليس صغيرا ؟

ـ سيكون وحده في القاهرة .

ـ بل سيكون اخوه معه .

وصمت الشيخ قليلا ثم قال .

ـ تقصدين حسين ؟

ـ اليس اخاه ؟
ـ حسين مشغول ياحاجة .
ـ مشغول ؟!
ـ مشغول ياحاجة .
وصمت وانتظرت الحاجة ان يتكلم .. واحس الصباب يتصاعد امام عينيه وقال
ـ عرف ابى مريض فلم يهتم حتى أن يرسل خطابا وعرف انك مريضة ولم يسأل . وأنا أزوره لا انقطع عن زيارته كلما ذهبت الى القاهرة .
ـ كيف عرف ؟
ـ من حمدى .
وصمت ثم عاد يقول
ـ لقد رفض حتى أن يأتى فى الاجازة . ومع ذلك .. ايه .. انما الأعمال بالنيات .
ـ انه ابنك ياحاج .
ـ لا ياحاجة .. لقد أردت أن يكون ابنى ولكنه هو لايريد .. النهاية النهاية .
ـ هل قطعت عنه ماترسله اليه كل شهر ؟
ـ وهل تعتقدين اننى افعل مثل هذا ياحاجة ؟
ـ لا .
ـ المهم .. اريد أن أزوج محمد .. ستكون له زوجة تعصمه من الزلل وتخدمه فيتفرغ هو للمذاكرة .
ـ أتريدنى أن اختار العروس ؟ .
ـ لقد اخترتها .. هى بنت عبد الحميد الهراس .
ـ كبيرة ياحاجة
ـ وما الباس .. حتى تعرف كيف تعامله ، وأبوها رجل طيب .
ـ أمرك ياحاج .. أأكلم أمها ؟
ـ على بركة الله .
وكان محمد مايزال يذاكر فى النهر لايفكر الا فيما يقرأه .

ـ ٢٠ ـ

انتهى اليوم الدراسى فى مدرسة البنات ، وراح الفصل يأخذ كثرة واختفت مدة خمس واربعين دقيقة وانفجرت تريد أن تخرج جميعها طفرة واحدة فهى اخلاط من الكلمات وعرق من الجمل . وفى وسط الفصل وقفت فتيات فى بواكير الأنوثة الصاخبة ، فأما احداهما فتلقى على ظهرها سبيكة من شعر أصفر صقيل ينتظم من الخلف ولكنك ان نظرت اليه من امام وجدته ثائرا فى عربدة جميلة كموج البحر ان كان البحر من ذهب يموج حتى ينتهى الى هذه الضفيرة . فكأنه بحر يصب فى نهر ، وقد انسدلت منه خصلات على جبهة الفتاة فتذكر شاطئ البحر الذى

لاتدري انه كان مخطئا ، او هو خائف ، خصلات كحيال من الشعر لا تدري اهي مسدلة ام هي تجري في تيار الشعر الآخر متجهة الى السيكه ، ترى الخصلة حينا فان انعمت النظر لاتراها ثم تعود فتراها وهكذا استطاعت هذه الخصلة ان تجعل وجه آمال متجددا دائما لا تمل العين النظر اليه .

وهو مشرق كالصباح الوليد ، ذو عينين فيهما حياء وفيهما شباب وفيهما حمرة حلوة يمازجها لون بني حتى لايكاد يدري ماهو لونها الحقيقي عاما انتهى فانطلق بعض الشيء بتبعه فم واسع فيه على سعته حزم واقدام وهي ذات قوام حلو وان كانت تميل الى النحافة اوضح ما في قوامها ثديان يشرئبان في عربدة طاغية وفي ادبرة باكرة .

واما الفتاة الاخرى فهي بديعة ايضا ، وهي ايضا ذات اغراء عربيدة لها رقبة طويلة بعض الشيء لكنها لاتنقص من جمالها ولها وجه اسمر يميل الى الطول وعينان حالمتان بسنوان صيقلين فان انعمت فيهما النظر احسست ان صاحبتهما هي التي تضيق منهما كأنها تحمل النظر في شيء تحبه ... فنظرتها دائما كأنما تقول لمن تلقي اليه لكم أحبك ، وهي ذات شعر اسود غير ثائر ولا هادىء ايضا وانما هو شعر قوي صقيل متكاثر تمسك باطرافه صغيرتان ياحدان سبيلهما على ظهر ناهد في عيد ان تقيدهما الشرائط وان كانت من حرير .

واتمت امال وناهد تجميع الكتب في حقيبتهما وخرجتا لاتلتفت واحدة منهما الى التلميذات الآخريات ، فقد كانتا تحسان عند انتهاء اليوم الدراسي انهما ردتا الى العالم الخليق بهما بعيدا عن الدراسة والتلميذات والمدرسات وكان هذا الشعور ينبت في صدر كل منهما دون اتفاق بينهما عليه ، او على الاقل دون أن يتفقا عليه بلمحة الكلام ، وراحتا يختاران الزحمة الطويلة التي تفصل حجرة الدراسة عن الفناء ولم تأبه ناهد حتى أن تنظر الى الفتاة التي اصطدمت بها فأوقفت منها حقيبتها ، وانما مالت في كبر فالتقطت الحقيبة بينما كانت امال قد سبقتها بخطوتين ، ولم تتعمد ناهد ان تسرع من خطاها ولا اهتمت آمال ان تتمهل ولكن سرعان ماسارتا حينا الى جنب مرة اخرى ، ومرت امامهما مدرسة فوقفت الخادم الجالسة في الردهة وهي خطة رفعت لها آمال يدها وكأنها ترد تحيتها ، وكانت ثلة من الفتيات تسير امامهما وجرت قطة من خلف آمال وناهد ودلفت من بين رجلي ناهد وقفزت الى ارجل الفتيات ونظرت ناهد الى أسفل ثم أرادت أن تواصل سيرها بينما راحت الفتيات تصرخ بين خائفة ومتظاهرة بالخوف وفي اهمال حالم عبرت ناهد وآمال ثلة الفتيات وواصلتا سيرهما الى السلم وراحتا تنزلانه درجة درجة واخيرا التفتت امال الى ناهد

ـ اتظنين انهم يأتون اليوم ؟

ـ طبعا .

ـ وهل ؟ ...

ـ سنرى .

واصلتا سيرهما حتى خرجتا من الباب دون ان تنظر واحدة منهما الى البواب المحور الذي حياهما في ابتسامة سادجة وسارت الفتاتان في الطريق حتى اذا بلغتا

شارعا جانبيا انحرفتا اليه ولم يطل بهما المسير حتى انحرفتا مرة أخرى الى طريق آخر وقالت امال وكأنها فوجئت :

ـ حاذوا .

وقالت ناهد في غبطة مطمئنة :

ـ طبعا .

ـ وماذا سنعمل ؟

ـ صبري .

وسارتا وعيونهما السيارة المكشوفة التي كانت واقفة على جانب الطريق ونهما شابان . فاما السيارة فانيقة عابة الاناقة ذات خراطيم كبيرة من المعدن تخرج من مقدمتها وتتجه الى أسفل فتكسبها عظمة وتفردا . وقد كانت مقدمة السيارة طويلة والخراطيم كثيرة واما الشابان فقد كان احدهما اسمر اللون نحيفا والآخر يميل الى البياض قدر ميله الى السمن وكان هو الذي يمسك بمقود السيارة . وقد دأب الشابان أن ينتظرا آمال وناهد منذ ثلاثة أيام في هذا الموعد . كما دأبا أن يسير خلفهما بالسيارة حتى تلتفت اليهما ناهد لتقول في صوت هامس مثير :

ـ بينما هنا

ويعود الشبان ادراجهما ليستقرا في اليوم التالي ويسيرا ويسمعا النغمة الهامسة المثيرة ويعودا .

وسارت السيارة خلف آمال وباهد ولكن الشاب السمين سبق العشابين وأوقف السيارة ونزل منها واعترض الطريق وهمست آمال لباهد :

ـ ماذا سنفعل ؟

ولم تجب باهد وانما واصلت سيرها وارادت ان تعبر الشاب وارادت آمال ان تفعل مثلها ولكن الفتى مد ذراعيه ونظرت اليه باهد نظرتها الساحبة وقد أضافت اليها بعض عتاب وقالت في همستها المثيرة :

ـ الناس

ـ وقال الشاب :

ـ نحن وحدنا .

وقالت باهد :

ـ ماذا تريد ؟

ـ ماذا تريدين أنت ؟

ـ أروح .

ـ أما يكفي هذا ؟

ـ ما هو ؟

ـ كفى .

ـ ماذا ؟

ـ اتمانعين في فسحة صغيرة بهذه السيارة ؟.

ـ وماذا نقول في البيت ؟

ـ تقولين كان عليكما واجب في المدرسة .

والتفتت باهد الى آمال .

ـ ما رأيك يا آمال ؟

وقاطعهما الشاب :

ـ تعيش الأسماء وحضرتك ؟

ـ باهد ... هيه يا آمال ؟

ـ كما تشائين .

ـ وقال الشاب هيا .. هيا .

وحين بلغا السيارة نزل الشاب النحيف وهو يقول :

ـ أحرا .. اهلا وسهلا .

ودلف الى المقعد الخلفي وامسك بيد آمال فركبت الى جانبه وجلست باهد الى جانب صاحب السيارة وانطلقت السيارة الى الطريق .

ـ ٢١ ـ

استطاع حسين ان يكتب شعرا ، وواتته الشجاعة فراح يرسل شعره الى

المحلات فيقطع شعره طريقا واحدا ماله من عودة ويصبح آخر عهده به اليوم الذى يطويه فيه ويطويه

ولم يجد من يسمع شعره الا حمدى صديقه الوفى وترب طفولته وأخو دراسته وكان حمدى على صلات بطلاب آخرين فى الازهر سرعان ما انضمت أسيابهم بحسين ولكنه كان يحجل ان يلقى عليهم شعره حتى شجعه حمدى فى يوم وراح يلح عليه أمامهم ان يلقى عليهم قصيدة « الطريق الحديد » والقى حسين القصيدة

كانت القصيدة تروى عن الحياة التى عاش حسين عمارها على يد معيده وان كان لم يذكر فيها الا الهوى العفيف والحب الخالص

وقال احدهم

ـ الله الله ياسى الشيخ

وقال آخر

ـ انها آمال ياسى الشيخ مجرد آمال

والح حمدى مرة اخرى ان يسمعهم قصيدته « الامل الضائع » وهى تلك التى نظمها يوم علم بزواج أخيه من صبيه ، ذلك اليوم البغيض الذى أرسل اليه فيه الحاج والى خطابا يدعوه ان يذهب الى القرية ليحضر الكتاب فلم يذهب ومكث يومين فى حجرته لايبرحها لاعمل له الا نظم هذه القصيدة واستقبال معبدة كلما عن لها ان تزوره

والقى حسين القصيدة وكان ذهنه مشغولا اثناء القائها بالتحسر على آماله ، آمال الانسان وآمال الشاعر فيه ، أتضاءلت الآمال حتى لم تصبح الا هذه القصيدة ، أتراها تضاءلت فأصبحت قصيدة ام تعاظمت فأصبحت قصيدة ، ايهما اعظم ، الآمال المنهارة أم القصيدة الرائعة ... اهى رائعة ؟ لقد قلت شيئا على كل حال ، وانى احس مافيها من الم ، ان لم أقل شعرا وانا ارى أخى يذهب آمالى وانا لن اقول من بعد شعرا أبدا ، أكان يعرف ما ينفس ، الم اكن أخفى حتى لايدريه أحد ، وماذا يهم ان كان يعرف أو لايعرف ، لقد حطم امامى هذا كل شىء ، ولا يهمنى ان كان يعلم او كان لايعلم ، النتيجة واحدة ، وكان يلقى القصيدة والدموع تنحدر من عينيه على خده وهو مشغول ان يزيلها ، بل لعله ارادها أن تنسكب فى هذه المرة فلعلها تستطيع ان تكسبه شكل شاعر ان كان لم يستطع ان يقول شعر شاعر

وكانت القصيدة صادقة ، وكان شكل حسين دمعه والأفكار التى تدور برأسه وهو يلقى القصيدة ، كل هذا جعل الجو المحيط به يستغلب اعجاب اصدقائه حتى لقد صفق بعضهم حين انتهى منه ، وقال الشيخ فهمى عبد القادر

ـ لابد أن تنشر هذه القصيدة

وانتفض حسين من أحلامه ومسح دمعته وقال

ـ تنشر ... وكيف تنشر ؟

ـ انى أعمل مصححا فى جريدة « الورود » واستطيع ان اقدم هذه القصيدة لرئيس التحرير

ـ صحيح ؟

ـ أى والله ٠
ـ قلت تعرف رئيس التحرير ٠
ـ نعم ٠
ـ أتستطيع أن تنشر هذه القصيدة ٠٠ انني لا أريد أجرا على نشرها ٠
وقاطعه الشيخ فهمي عاجلا ٠
ـ أجرا ٠٠ انك ستعتبرنا على حسابك يوم تنشر القصيدة ٠٠ يظهر انك لاتقدر معنى نشرك قصيدة في مجلة « الورود » معناها انك ستصبح احد شعرائها مثلك مثل محمود ادهم وامين كامل وقال حسين في لهفة
ـ محمود ادهم ٠٠ اتعرفه ؟
ـ اراه كل يوم ٠
ـ ما اسعدك ٠٠ انا معجب بشعره الغنائي كل الاعجاب ٠
ـ عدا تعرفه ٠
ـ ياليت ٠
وقال حمدى
ـ متى ستنشر القصيدة ياشيخ فهمي ؟
وقال الشيخ فهمي في شعور عميق بالأهمية
ـ كل آت قريب يا شيخ حمدى ٠٠ كل آت قريب ٠

هيه فتاة بيضاء ناصعة البياض ذات شـــعر لاهو بالاسود الداكن ولا هو بالاصفر الفاقع وانما هو بين بين تطلقه بعد ان تزوجت دون ان تلم ثائره صديق او صغيرة وهي ليست طويلة بل لعلها الى القصر اقرب ، سمينة بعض الشيء وان كانت الآن سمينة غاية السمن،ذات عينين واسعتين وفم أوضح مافيه شفتان غليظتان.تلقت تعليمها في الكتاب فتعلمت الجهل من اوثق مصادره . فرحت يوم زواجها بمحمـــد غاية الفرح ، فقد كان الزواج في ذاته هو الامل المنشود الذي تهفو اليه احلامها اذا أمست وافكارها اذا اصبحت ، ولو كانت تدري كيف خطبها محمد ، أو كيف خطبت لمحمد لترددت كثيرا قبل ان تفرح . وانما قيل لهـــا عريس ، وبين الحاج والى ، والقاهرة ، وتصبح ستا في بيتها فتفرحت وهي تقيم الآن في بيت بالسيدة زينب هي ومحمد ، ومحمد مشغول عنها في البيت بالمذاكرة وخارج البيت بأشياء كثيرة ، وهي تستعدي الصداقات من الجارات ، وتلتئم بينهن الصلات . ويذهب محمد الى بيوت اصدقائه فيجد غير مايجد في بيته ، فالبيوت هناك بطيعة مرتبة ، وبيته قدر مهوش. فيزداد ضيقا بزوجته ويكتم خبر زواجه عن زملائه فاذا الحوا عليه ان يزوروه يتفصل من الدعوة بشتى المعـــاذير . فعنوانه كزواجه سر من الاسرار لايبيحـــه لاحد حتى ولا لصديقه الأوفى مجدي عبد العزيز . وكان من الطبيعي ان يعتبره الاصدقاء غريبا غير متزوج فيشركوه فيما يشترك غير المتزوجين فيشترك تدفعه الى ذلك الرغبـــات المكبوتة في المغامرة والمبالغة في اخفاء امر زواجه وهكذا صحبه مجـــدي الى عزيزه فذهب اليها مترددا أول الأمر ثم اصبح يذهب اليها وحده . ويزداد محمد ضـــيقا بزوجه ولكن هذا الضيق لم يمنع هذه المناقشة ان تدور بينهمـــا بعـــد عام من زواجهما :

ـ لابد أن أذهب الى البلد لالد هناك .

وكان محمد يعتبر نفسه طبيبا منذ التحق بكلية الطب .

ـ لا يمكن ، كيف اكون طبيبا وتلدين في البلد ؟

ـ وانا لايمكن أن اصبح بعيدا عن أمي .

ـ نرسل الى أمك تأتي الى هنا وتلدين في المستشفى .

ـ لقد تدرت أن أجعل الخاصة زينب أم عوضين هي التي تولدني .

ـ الخاصة زينب .. هذه المرأة العجوز الراعشة اليدين ؟

ـ مالها . البست هي التي جاءت بك الى الحياة ؟

ـ بل انها هي التي أودت بأمي الى الآخرة .

ـ لن يولدني غيرها .

ـ بل سيولدك الطبيب .

ـ لن يكون هذا .

ـ لن يكون الا هذا .

ـ ستترين .

وكان محمد يواجه امتحانه ولكنه لم يجد بدا ان يسافر بامراته الى البلد ويعود في اليوم ذاته .

وحين انتهى محمد من الامتحان سافر فوجد امراته قد وضعت له ولدا ووجد اباه قد اسماه احمد وحين بدأ العام الدراسي الجديد يرجو محمد اباه أن يبقي زوجته

وابنه عبده حتى يستطيع أن يخرج هو للمذاكرة لان الطفل سيجعل الامر عسيرا عليه ، ويحس أبوه في وعي الخديث انه تعجل في أمر زواجه ويعود الصباح يتصاعد أمام عينيه ويرحب بكتبه وحقيبته ان يقيما ماحلا لابنه ان يقيما .

ولا تشعر هنية من ذلك حرجا بل انها تحس نفسها أقرب الى الحياة التي تحبها ، فقد ضاقت بالقاهرة هذه الفترة التي اقامتها فيها ، وكل هذا لم يمنع احساسا واعيا في نفسها يلح عليها ان محمد يريد ان يبتعد عنها ولا تأبه كثيرا لهذا الاحساس فقد جاء أحمد ولا مفر لمحمد من احمد ومن أم أحمد .

- ٢٣ -

كان حسين جالسا في حجرته حين جاءت مفيدة واغلقت الباب من خلفها وهمت حين قالت :

- ألم اعد انا الوحيدة ؟

- لا أفهم .

- تعرف خيري .

ومسح حسين الدمعة المتحدرة عن عينه وقال

- أنا ؟! من قال هذا ؟!

- مثل لا يفوتها هذا .

- أبدا والله .

- لا تحلف انك شيخ محترم ، لاتحلف .

- أحلف صادقا .

- والله ان حلفت على المصحف ما صدقتك .

- ياشيخه اعقل .

- اعقل انت ياشيخ .. تريد أن تلف علي أنا وقد كنت قطة مبصصة ، وفتحت انا لك عينيك .

- على فكره .. اين القطة ؟

- القطة .. وهل تسأل عليها !! انها هي الاخرى احست انك لم تعد تهتم بها فتركتك الى غيرك .

- من غيري ؟

- لا شأن لك .

- وهل هي وحدها التي تركتني الى غيري ؟

- ومن غيرها ؟

- لعلك انت ايضا تفكرين في تركي .

- انا لا اتركك صاحي حتى وان كنت أعرف انه يلعب بذيله .

- حل القطة عندك ؟

- اتريدني ان اسلم لك عليها ؟

واطلقت ضحكة مجلجلة حتى لم يسمعا الطرقة الاولى على الباب .

وحين حفلت الضحكة سمعا الطرقة الثانية وانحبست انفاسهما ، وارادت مفيدة ان تقوم عن السرير فامسك بها حسين وانقاها حتى لا يخرج السرير حسا وعاد

الطرق الى الباب صافيا واضحا وعاد الصمت الى الحجرة أشد صفاء ووضوحا والح الطارق مرة ثالثة ولم يسمع جوابا . وان كانت الضحكة الاولى مازالت اصداؤها ترن فى اذنيه . حتى اذا يئس الحاج والى قال فى نفسه اترك له فرصة ان يكون منفردا ، ونزل السلم والضباب يغطى درجات السلم جميعا . الهذا كان يربيه ؟!

الهذا يقدم له المال والعون والابوة ؟ ان قطع عنه المال أضاع مستقبله وان قدمه .. ايقدم له المال ليرثى ؟ ولكنه يذاكر انه يقدم له المال ليصبح صاحب شهادة لا . لن يرده الرثى عن المذاكرة .. أهذا هو الشيخ الذى سيصبح واعظا ويتراءى الصباب أمام عينيه .

حين عاد الشيخ والى الى حسن احتهد الا يبين انه فهم شيئا أو سمع . وقبل حسين يده ومسح الدمعة المتحدرة وعاوده ذلك الشعور بالعجز والاحتقار لنفسه أمام الحاج والى . وقال الحاج .

ـ كيف حالك يا حسين ؟

ـ البركة فيك يا أبا الحاج .. الحمد لله .

ـ قال لى عبد الحميد افندى مسعود ناظر المدرسة الاولية انك تنشر شعرا فى مجلة الورود .

ـ نعم يا أبا الحاج .

ـ انا أحب الشعر واحب الشعراء وانا متأكد ان هذا لا يشغلك عن دروسك .

ـ لا أبدا .

ـ انت فى ثانوية الازهر هذا العام أليس كذلك ؟ .

ـ نعم يا أبا الحاج .. انى امتحن الآن .

ـ طبعا المذاكرة على قدم وساق .

ـ طبعا يا أبا الحاج .

ـ أتريد شيئا ؟

ـ البركة فيك .

ـ اراك لاتسأل عن الحاجة .. انسيتها يا حسين ؟

ـ لاقدر الله يا أبا الحاج .. كيف هى ؟

ـ تسلم عليك .

ـ ابقاها الله .. يا أبا الحاج أنا كنت سأسافر اليك

ـ كذا .. انك منذ سنين لم تزر البلد .

ـ لا والله كنت مسافرا اليك لاراك وأرى الحاجة .

ـ ولماذا أيضا ؟

ـ اريد أن أكلمك فى موضوع .

ـ خيرا .

ـ اريد أن ادخل كلية دار العلوم .

ونظر الحاج والى اليه مليا وصمت وحالته فكرة ألحت عليه حتى قال .

ـ وتظل بالجبة والقفطان ؟

ـ والله أريد أن ..

ـ مفهوم ـ على كل حال يسرني ان تصبح معلما ـ ان هذا اقرب الى ما تحب اريده انت ـ فالواعظ في رأيي لايفيد قدر مايفيد المعلم . المستمع الى الواعظ يعلم ان وظيفته هي أن يقول هذا الكلام فالاستجابة له لاتكون عادة كاملة . اما المعلم فانه مع تعليمه للمادة التي يقدمها يعلم الاخلاق بطريقة غير مباشرة والاخلاق هي كل شيء يا استاذ حسين .. اليس كذلك ؟ .

واحس حسين النعمة التي غافلت الحاج وسرعت الى الحديث وقال

ـ طبعا .

واحس صوته منحبسا فسعل وعاد يقول

ـ طبعا .

ـ بلدنا تحتاج الى الاخلاق أولا ثم الى العلم .. بهما نستطيع ان نخرج العدو ونكون وطنا عظيما ـ ولكن الاخلاق أولا يا استاذ حسين .. الاخلاق أولا

ومسح حسين الدمعة المتحدرة وعاد يضحك وهو يقول طبعا ـ طبعا .

ـ على بركة الله يابني .. وهذا مبلغ يكفي لاحضار حلين حديدين مادمت تريد ذلك .. هيه .. اتركك انا

ـ ولما العجلة يا ابا الحاج ؟

ـ اريد ان أزور محمد .. انك لاتزور أخاك يا حسين

ـ أخاف ان اشغله ، فكلية الطب صعبة يا ابا الحاج .

ـ زره يا حسين فلن يكون لك الا هو ولن يكون له الا أنت .

ـ أنا آسف يا ابا الحاج .

وخرج الحاج وودعه حسين الى باب السلم ، وانتظر حتى غاب عن ناظريه ثم راح ينظر الى امتعة العشرة التي تركها له ثم طواها ووضعها في حيبه في عناية بالغة ، وانحسر عنه شعور الضجر والاحتقار لنفسه .

يوم انتهى الامتحان اتفق حسين مع امين كامل الشاعر الذي يسير معه في محلة الورود ان يقيما حفلا خاصا لهما يدعوان تكاليفه متصفة ، يشتريان فيه زجاجة من الكونياك ويدعوان فتاة يعرفها امين لاتتقاضى الا قدرا ضئيلا من المال . وكان حسين في دخيلة نفسه يريد أن يحتفل ايضا بأول يوم يلبس فيه البدلة ولم يجد انسب من زجاجة كونياك وفتاة امين احتفالا بهذه المناسبة ـ وقبل ان يحل موعد الحفلة راح حسين يلبس بدلته الجديدة ، في عناية بالغة فلبس القميص والبنطلون فلم يلق مشكلات تعترضه حتى اذا اراد ان يعقد رباط الرقبة اشكل عليه الامر وراح يربط ويفك . أو يربط فتتعقد عليه الامور حتى اذا يئس وضع الرباط على السرير وجلس ينتظر معيده لعلها ترى حلا لهذه المشكلة ولكن طال عنائها فاراد أن يقوم الى موعده دون رباط الرقبة ولكنه تذكر ماسيلاقيه من سخرية امين فجلس في موضعه وقد صمم الا يذهب ان لم يعقد رباط الرقبة . وفجأة دخلت اليه معيدة فعاجلها قبل أن تفكر في موضوع آخر فراحت تربط له الرباط كما تفعل لاخيها الصغير وأكمل هو ملبسه وانطلق من الباب لم يشكرها الا بقبلة عاجلة .

وحين بلغ شقة امين وجده جالسا في نهر مترله وحيدا وامامه الزجاجة لم تفتح وسأله

ـ واين الشعل ؟

ـ في الداخل ؟

ولم يتمهل بل اندفع الى الحجرة الوحيدة في الشقة وكان الوقت في الغروب والشمايك مفتوحة وبكنه راى تلك ادميه جالسة على الاريكه فارتمى بجانبها ومد فمه يقبل فاستقبله شعر خشن لشيب وظالمه صوت رجل

ـ من انت ؟

ولم يتزعج حسين وانما مسح دمعته وقد ادرك ان الفتاة مع آخر دعاه امين فقال دون ان يفكر

ـ انا حسين شحاته ومن أنت ؟

وقال الشاب على الناحية الاخرى من الفتاة

ـ اهلا ، انا محمود ادهم ؟

فقال حسين وهو يحتضن مكانا خاليا من جسم الفتاة

ـ اهلا فرصة سعيدة ؟ ومن حسين وانا اريد التعرف بك ؟

ـ ها نحن تعارفنا ؟

وحين خرج الثلاثة من الحجرة وجد حسين ان الحفل لم يكن مقصورا على اربعتهم فقد جاء اغلب كتاب المجلة واعلن امين ان الحفل مقام لمناسبة اذاعة الخبر عن جنـــه حسين شحاته ؟ وكان الشـــعراء منهم قد اعدوا قصائد بهذه المناســبة ؟ وارتجل حسين قصيدة يعلم فيها من شان نفسه ويهون من اقدار الناس جميعا الا هو ،وجرت الكاس والضحكات ؟

ـ ٢٤ ـ

لم يعد زين العابدين بك يستطيع ان يسهر كثيرا فكان كلما جاء الى القاهره مدعيا زيارة ابنته العنيفة عند جدها يذهب الى صديقته الحديثه نعمات هنسيكه بعد الظهيره فيجلس اليها في بيتها ثم يصحبها بعد ذلك في عربة حنطور تجوب بهمـــا الجزيره حتى اذا اقترب المساء سارت بهما العربة الى الكباريه فيتركها هناك وينصرف هو الى بيته او مقهاه ؟

لم تكن نعمات هنسيكه جميلة ، لا ولا كانت فتاة في مقتبل العمر انما هي بقية من ماض تخلف في الكباريه متروكة لمثل زين العابدين ليقضي بها نفسه انه مازال الغني الذي كانه منذ نيف وعشرين عاما ؟ وهكذا كانت نعمات قانعة بنصيبها من زين العابدين ، وقد كانت امراة طيبة تحسن الحديث وتســـتطيع ان تعيـــد الى زين العابدين ماضيه صورا من الحديث بعد ان عجز ان يستحضره قوة وسيادا ؟ فهي تذكره بغرواته مع العراقيه وسنيه شحلع واعيسه ولعه وغـــيرهن ؟ وتقص ـ ومن القصص ما هو خيال ـ كيف كن يتشاجرن لتحطيم نضحته ويقول زين العابدين في نفسه لعل هذا كان حقا ويحاول أن يقنع نفسه أن لعلها لاتكذب فاذا عجزت نفسه ان تقتنع راح يلتمس هذا الكذب ؟ ويحاول ان يقربه من الصدق فيهمس الى نفسه ليس من الضروري أن يكون كذبا لانه الم نفع ، فانه كان حليقا أن يحصل على أية حال ؟

ومن ادراني فنعمات ادرى بخائلهن وما كان يدور بينهن من حروب وقتال ؟

ولم تكن نعمات تريد من هذا الحديث الا ادخال السرور الى نفسه فهي تعلم انه

يهمني أيها القصي ما يستطيع بروت ان يحصل وانه يصمم بها كل ما يصين ان يقدم
وما كانت تريد ان تضيق عليه في شيء حتى لايضيع ما بينهما ، فقد كانت على ثقة ان
صلتها بزين العابدين هي حالته الخلاف في حياتها الطويلة العريضة في دنيا الكباريه
كانت تدري انها تنهي حياتها الصليبة بزين العابدين فهي متشبثة به تتشبثها بالحياة
فهي مثله بيف واربعين عاما لاتعرف لنفسها حياة الا الكباريه والصدين .

وقد اصبحت في الكباريه مشرحة اداريه فهي لاتحس انها انثى الا مع
زين العابدين ، واحساسها انها انثى هو كل شيء بالنسبة اليها -- كل شيء فهي
تكاد تثق ان حياتها تنتهي بانتهاء الصلة بينها وبين زين العابدين .

اما زين العابدين فقد كان يدري انه لايملك ان يتعرف بحبر من نعمات عشيقه
فاما شبابه فقد ولى وهو يدري ، واما ماله فهو لايكفي الا مايستر امره وما دام قد
اصبح بلا شباب ولامال فليس في العالم حبر من نعمات ترد اليه الشباب في قصصها
وفيما تمثله من ماضيه وماضيها ويبقى عليه المال بعدم مبالغتها فيما تطلب وعدم
ضيقها بما يعطي .

كان زين العابدين يصبغ شعره وكان يحس انه بصبغته هذه يصبغ عجزه
وهذا التيبس الذي الم باطرافه وهذه الغضون التي تكاثرت حول عينيه وفي وجهه
بل وفي جسمه كله . بل انه كان يحس انه يصبغ الايام الشاحبة من الشيخوخة .
ايام في بياض الثلج وجموده ، كان يجري عليها امشاطه ويمطر الى المرآة ويبتسم ،
وحسبه عند نظره الى المرآة ابتسامة ، لا ، لم يعد يطمع في هذا الفرح العزيز الذي
كان يتواثب في نفسه كلما نظر الى المرآة ، لا ولم يعد يريد هذا الاطمئنان عبر المآلي
الذي كان يشيع في نفسه عندما ينظر الى المرآة ، وهو بطبيعة الحال لم يعد يفكر
ان يشعر بهذا الزهو الذي كان يثب الى قلبه من المرآة -- بحسبه من المرآة ابتسامته
واحيانا كانت الصبغة ينصل لونها فكان زين العابدين يرى الشعرات البيض المتعلقة
من الصبغة تلتقي بالشعرات السود فكان يفرح من هذا اللقاء . فحبب الى نفسه
ان يلتقي الشباب بالشيخوخة ولو كان هذا اللقاء في الوان وان كان هذا اللقاء
مصطنعا تكلف فيه هو الشباب بعرشاه وصبغة وفرضت فيه الشيخوخة نفسها
كسنة من سنن الطبيعة وفترة من فتراتها . ولكنه كان يفرح على اية حال ويداعبه
امل ، مجرد امل ان تهب اليه من شبابه نسمات ، او نسمة من حين الى حين مهما
يتباعد مابين هذا الحين وذلك الحين .

كانت القاهرة تودع الشتاء وكانت النسمات تهب بعيد الظهيرة حانية هينة
المسرى كأنها تصل بين شتاء بارد تودعه القاهرة وصيف قائظ تستعد لاستقباله
او كأنها بشائر من الربيع ارسلها كما يسبق الحراس المواكب،واستغل زين العابدين
عربة ذات حصانين يبدو بوضوح ان احدهما ذكر والاخرى انثى ، كما يبدو بوضوح
انهما تزاملا في هذه المهنة فترة طويلة من الزمان فبينهما هذه الالفة المفروضة بين
زميلين قديمين فلو اطاق كلاهما لعانق كل منهما ذراع الآخر في حنان الآدميين الذين
تقدمت بهم السن ولم يعودوا يتطلعون من المستقبل الا ان يستعيدوا معا ذكريات من
الماضي الطويل . وكان سائق العربة رجلا في فترة الشباب عريضا ضخما لايعبأ
كثيرا بما بين الحصانين من الفة وتواد بل انه حتى لايرعى حرمة الذكر أمام انثاه

ولا رقة القلب في معاملة الاتي فهو بسوط كليهما في حركة يأتيها عفوا كأنها جزء من واجبه . وبشكل يقطع انه لايلي لتير رحمه لزميليه في العمل لولاهما ما كان له عمل . انك تستطيع ان تدرك بسهولة انه اشتراهما منـــذ قريب وانه قد دفع مقابلهما ثمنا لايستحقانه وهما على ماهما عليه من تقدم في السن . لم يكن صاحب العربة رحيما على الحيوان الابكم فيهما كما لم يكن رحيما على كبر السن الذي يستلانه وانما كان يثار للعرق الكثير الذي يبذله في سبيلهما .

وكانما كان الحصانان يرجوان ان يجدا في تنحوحتيهما شيئا من الراحة أو شيئا من التوقير على الاقل فحين لم يجداه من صاحبهما الجديد راحا يقرصانه قرصا بسيطا وانيه غير عاجلة ولا مأليه بهذه السياط التي تمر عليهما وكانما يريدان ان يقولا لكم عرضنا امثال هذه السياط ولكنك في آخر المطاف مضطر أن تقدم الينا اوفر الطعام واحسن العناية والا حرمناك زرقك جميعا فللشيخوخة بحرتها وفائدتهـــا في كثير من الاحايين .

وهكذا سارت العربة في هدوء على الرغم من صخب السائق . وزين العابدين يحاول ما وسعه الجهد ان يملأ فراغ المقعد في العربة بجسمه ولكن هيهـــات له ان يستطيع فقد صغر جسمه مع الأيام ، ألم تصغر أيامه ايضا ولكنه لايريد ان يصدق الصغور في جسمه أو في أيامه فهو يتوسط المقعد ويضـــع يدا على يمين ويدا على يسار ويفرج ما بين رجليه قدر ما يستطيع واضعا عصاه على الكرسي الصغير المقابل له ، ينظر الى الذين يمر بهم يكاد يسألهم هادا ترون ؟ .. الا ترون شبابا ، وهذه الوردة الحمراء الا تصنع لي شبابا ، وهذا الشعر العاجم ، فما الشـــباب ان لم يكن كذلك ، وتمر به الاعين فتبتسم حينا أو تعبره كظاهرة تعودت أن تراها فما تحس فيها جديدا .

ووقفت العربة عند بيت متهرىء القسمات حاول ان يتنحر فعاجله صـــاحبه بالاسعاف ونصب له مسامير من الخشب تأخذ الطريق على من يريد السير على الطوار حتى ليخيل لرائيه انه عجوز مال على دراعه فنام واستقر به الحال في نومته ، او لعله بذكر آخرين يواجه من اهل الكهف اصابته نوبة الاغفاء وهو مستند على ذراع له ، ولكنه كان عند زين العابدين بيت نعمات وكان عند نعمات المأوى الذي ملجأ اليه من زمان بولي وشيخوخة تسارع اليها الخطو .

طلب زين العابدين من السائق ان ينتظر فأمر السائق الخيل بدوره الا تتحرك وألقى امره بسباب كثير والتفت اليه الحصان الذكر والعمامة على عينيه ثم التفت الى زميله ومسح شفتيه بلسانه ثم استكان . ونزل زين العابدين من العربة ومضى السارع بعينيه كأنه مقدم على مغامرة حتى اذا اطمأن الى خلو الطريق دلف الى الدرب المنحني بين الاعمدة التي تسند البيت .

ولم يطل غياب زين العابدين وعادت معه نعمات وقد ارتدت فوق ملابسها معطفا جديدا اشتراه لها زين العابدين منذ قريب .

كان وجه نعمات مختفيا وراء كثير ولكن لم يكن الحجاب من الاشياء التي كان يحتجب وراءها الوجه .

وسارت العربة وقبل ان ينطق زين العابدين التفت اليه السائق بعنـــف السعاتة وقال .

- الجزيرة ؟

وقال زين العابدين في مرح

- تعجبني

واتجهت العربة الى الجزيرة وقال زين العابدين

- انت اليوم قمر

وقالت نصات وقد ابتسمت عن اربعة اسنان ذهبية وعن تجاعيد كثيرة حول فمها

- اليوم فقط ياعمر
- وكل يوم وشرفك
- اين كان هذا ؟ ... كنت لاتسال عما ايام سنيه شجلع الله يرحم ايامها .
- انت التي كنت متصرفة عنا
- وهل كنا نتوصل
- أيام
- الا تعجبك ايامنا هذه
- حلوه والتي حلوه ياتمتع
- اراك تتحسر على سنيه
- انت انستيني الكل
- ياتري صحيح
- والتي صحيح ... صحيح والتي
- كنت ايام سنيه ....

وراحت تعيد على مسامعه ايام مجده وهو يرداد انتفاخا بجانبها ويمطر الى المارة بكاد يستوقفهم ليسمعوا مايسمع وقد تسري في داخله في لحظة عابره حسنة تقول كذب ماتسمع ولكن سرعان مايكتم هذه الهمسة فان الحقيقة كئيبة عند ما تحلو الخيال ، وعلى كل حال ما اقرب الواقع من الخيال ، وعلى كل حال هو منهج يكاد يطير من البهجة بين الشيخوخة والصبية وبين الحقيقة لم يعد يذكرها ، لم تعد الحقيقه عنده الا هذا الذي ترويه نصات ، وقائع تشركه هي فيها في حرأة ودراية ومرح ، وهو لم يفعلهـــا ... اولا يذكر انه فعلهـا ... بل انه يكاد يذكر انه فعلها ... بل انه واثق انه فعلها وانها الحقيقة في الحقيقه ... وتسير العربة .

ويصل موكب الذكريات والاساطير الى الجزيره وتمر العربة بعربات اخرى ، وتمر بسيارات ، والذكريات تهمر وزين العابدين في نشوة عيهات أن تبلغها نشوة الخمر مهما تزايد ، وينظر زين العابدين الى العربات والسيارات ، لو استطاع لصرح فيس بها اتعرفون اتم الحب والشباب تعالوا فانظروا كيف كنت ، بل فانظروا كيف انا الى الآن ويراد انعاما في العربات والسيارات الواقفه يرميها بنظرات محايدة ليس فيها معنى ، وتسير العربة .

ولكن العربة تبلغ سيارة مكشوفة ، ويقول زين العـــابدين في نفســـه ، مكشوفة ... أليس لها غطاء ، ويتم النظر ثم ينتفض انتفاضة مجنونة ، ويعـــود ينظر ، انها هي ويقول :

- ينتي ؟

ويخيل اليه انه قالها في نفسه لم ينطق بها سمعاء وما درى انه صرخ ... وراح السائق يحث الخيل على العدو وهي تأبى الا أن يسير . وامسكت نعمات بملابسه داهشة لاتدرى ماذا تفعل او تقول

ويقول زين العابدين داهشا :

ـ قف ... قف ياأوسطى .

وتقول نعمات

ماذا تريد ان تفعل ؟

ويرد السؤال الرجل الى بعض العقل وان كان جسمه قد اصبح مرجلا يغلى ويلتفت الى نعمات فتطالعها منه نظرة داهشة حائرة كسيرة مخذولة وتعيد سؤالها :

ـ ماذا تريد ان تفعل ؟

ويقول في حيرته الداهشة .

ـ خذى .

ويخرج من جيبه حفنها .

ـ خذى هذا وامشى انت ... نعم اتركى العربة .

وتنزل نعمات الى الطريق تبحث عن عربة ويبطر زين العابدين الى السائق يقول له في استبداء آمر .

ـ انتظر انت .

ويقصد الى آمال جالسة مع شاب في المقعد الخلفى من سيارة مكشوفة غير عابىء بأحد في السيارة نفسها وفي نورة مكبوتة يضع يده على ذراع بنته التى كانت مسترخية على جانب السيارة وكأنما وجدت نورته انفجارتها في تشنجها بذراع ابنته ولم شيئا الا .

ـ قومى .

وانتفضت آمال .

ـ بابا !!

وقال مرة أخرى في نفس الثورة .

ـ قومى .

وفي لحظة كان ركاب السيارة منتبرين حولها وكانت آمال مخرجه الى العربة المنتظرة وسارت العربة .

وقال زين العابدين للسائق :

ـ الى محطة مصر .

وانتظر القطار ساعة ونصف ساعة لم يقل كلمة واحدة بل حتى لم يعد يفكر انما كل ما سيطر على ذهنه انه يريد ان يذهب الى بيته في قرية الحميدية ولا شيء آخر .

وحين حل الموعد انتزع ابنته الصامتة بدموعها التى تسأل على رجفتيها وركبا وسار القطار .

ـ ٢٥ ـ

لم تكن عزيزة حميلة وانما هي شفتان غليظتان وشعر أرعم على الاستواء

ارضا فهو مقبول في نهايته باسلوبه يبقى عليه السلام وهي ذات عينين صغيرتين وامال اشد ضيقا من عينها . لها قصة تكررت حتى لتكاد تصبح من كثرة تكرارها كاعمال الحياة اليومية التي لاتستحق الرواية . كانت خادمة وكان في البيت مراهق. وحين اضطرتها الحقيقة المتحجية في احشائها ان تعلنها ذهبت الى المستشفى ودفع ابو المراهق النفقات في كرم . ثم اعطاها ايضا عشرين جنيها ثمن سكوتها وشرفها في بيعة واحدة . وكان لابد لها ان تقبل فان البضاعة التي باعتها لايقبل شراءها الا هذا الذي اشتراها فهو محتكر للصنف . وكانت لن تجد هذه الجنيهات العشرين على أية حال فقبلت ماعرض عليها . وقبل ان تخرج من المستشفى كانت احدى الممرضات قد عرفتها بسيدة أخرى تتاجر ببضاعتها اللواتي بعن شرفهن كعزيزة واتصلت عزيزة الى الممرضات في بيت الخاجة بيوية . وكانت الخاجة بيوية قاسية في معاملتها لبضائعها ولكنها ـ والحق يقال ـ كانت تسافر في كل عام الى الخارج تلقي باحمالها من ذنوب التجارة والقسوة جميعا ثم تعود الى القاهرة بقلب متهيء لكل ماتعودت ان تمارسه من اعمال .

وهكذا لم تصبر عزيزة طويلا على الخاجة فسرعان ما اقامت تجارة حرة وحدها وبعد أن هدأت الى زبائنها بمكانها الجديد جمعت ملابسها . الى هذا البيت الذي تستقبل فيه زبائنها القدامى ومن استجد منهم بعد ذلك غير مبالية في النهاية فقد كانت تدري انها ليست جميلة .

ولم تكن تجارتها رائجة فقليل من كان يعرفها وقليل هذا الذي يدعمه من يعرفونها فهم في أغلب الاحيان طلبة في الجامعة ممن لايحبون ان يلتقوا بتلاميذ الثانوي في الاماكن العامة .

وكان محمد في يومه هذا ضيقا اشد الضيق بحياته جميعا . فهو متزوج وغير متزوج في وقت واحد ـ وهو على كرهه لزوجته يحس انه بحاجة الى انسان . لا لم يكن الوحدة . انما هو يحس انه ضائع غير وحيد . نعم انه ضائع هذا هو التعبير الذي أحس بصدقه حين بيت كالهمس في نفسه . ضائع لا يدري لماذا . لم يكن وهو بجانب ابيه يحس بالضياع ولم يكن وهو بجانب زوجته يحس الضياع وان أحس الضيق لها والكره ولكنه لم يكن يحس الضياع . اما الآن فاصدقاؤه كثيرون ولكن ليس بينهم من يستطيع ان يجد فيه اباه او ضيه .

هل أريد أبي حقا . الم أكن أضيق بتسلطه وفرضه رغباته دون ان تكون لي فرصة ان أقول ما أريد فاذا انا أخر الأمر لا ارى الا ما يرى بل ولا مستقبل الا ما يرسم . فها انذا وحدي ، اخط مصير نفسي بيدي . اي مصير ، لماذا لا أموت لماذا تخسر الدنيا اذا مت انا . انا في كلية الطب ولن يستطيع طالب في كلية الطب أن يصبح مهندسا او محاميا . اي مصير أخطر . روحي ممن أراد هو ، وجاء ابني يؤكد هذا الزواج بشته ان كان فيه محال لشك ، فماذا بقي لي من مصيري لأخطه .

وقادته قدماه الى عزيزة واستقبلته استقبال زبون قديم وقال لها بعد حين .

ـ أريد ان اعرض عليك موضوعا .

ـ تفضل .

ـ هل انت مشغولة كل ايام الاسبوع .

ـ عل حسب ٠

ـ طيب عل انت مشغولة طول اليوم

ـ عل حسب ايضا ٠

ـ اسمعى

ـ عه ٠

ـ اريد ٠٠٠

ـ قل مادا تريد ٠٠

ـ لا ٠٠ لا شيء ٠

ـ اسمع يا سى محمد ٠٠ نحن نسمع الكثير ٠٠ الزبائن لا تجد مكانا احسن من عندنا لافراغ كل ما عندهم ٠٠٠ قل ٠٠٠ انت مثل اخى ٠٠ ان لم استطع ان اريحك فانا لا أستحق أن تعرفنى ٠

ـ لا ، لاشيء والله الا انى لاادرى لماذا احب ان اجلس اليك ٠

ـ صحيح ؟!

ـ احب ان اجلس اليك ٠

ـ اهلا وسهلا ٠

ـ انت الوحيدة التى استريح معهـــا ٠٠ انا اخترتك انت من بين كل اللواتي عرفتهن ٠٠ انا الذى اخترتك بمزاجى انا ٠٠ بكيفى ٠ فانا اريد ٠

ـ قل ياسى محمد قل ولا تخجل ٠

ـ احب ان اجيء اليـــك كلما امـــكننى ذلك واجلس معك مجرد جلوس ولن اعطلك ٠

ـ يا اخى تفضل اهلا وسهلا ٠

ـ مسألة الفلوس ٠

ـ لا ٠٠ لاتتكلم فيها يا سى محمد ٠٠ لاتتكلم فيها ٠٠ ياسلام ٠

ونظرت اليه نظرة طويلة ٠٠ فتى فى ريق الشـــباب طويل القامة اسمر الوجه ذو عينين كالمرآة يعكسان مايسقط عليهما من نور ولكنهما لايشعان من داخلهمـــا نورا ، يبدو عليه انه كجهاز للاستقبال اللاسلكى ولكنه لا يصلح للارسال ، يضحك ان سمع مايضحك ويحزن ان سمع مايحزن ولكنه لايثير الضحك أو الحزن فى أحد ٠ ولهذا كان اصحابه يحبونه ٠

وغالب عزيز ؟

ـ وانا أيضا يا سي محمد لا أجد راحة عند احد كما أجدها عندك .. احس وانت تسمعني انك فعلا مهتم بما اقول ، الآخرون لا يسمعون ما أقول

ـ لماذا لم تطلبي مني أن أجيء للجلوس اليك ؟

ـ خشيت ان تظني اريدك ان تأتي لمجرد دفع الفلوس ... انت متروح يا سي محمد

وقص عليها محمد كل ما كان يكتمه عن الاصدقاء الاقربين .

ـ ٢٦ ـ

كان زين العابدين يجلس في غرفة الاستقبال بمنزله وحوله رهط من اعيان القرية بينهم الحاج والي وكان القلق يسيطر عليهم جميعا فقد كان الراديو يذيع انباء الحرب في ثورة محمومة امتدت من أوربا فشملت العالم أجمع حتى بلغت قرية الحميديه وزين العابدين والحاج والي وهذا الرهط الطيب الذي لا يتصل به سبب بالحرب الا ان يتورج ويسيطر عليه هذا القلق الاحمق الوبيل ... الفلوس منهم هالصبسة لا تدري ما الصير في الغد ، والايام الفاصلة كلها معلقة بدخان قاتم من نيران الحرب ، كل فرد منهم ينظر الى غده في ذعر تختلف بينهم أسباب الذعر ولكنهم جميعا متفقون على الذعر والقلق والترقب للغد الكالح المر المستخفي في اطوار الدخان وأصوات الطلقات وآهات الصرعى وصحيح الجنود وصراخ الفواجع تغشيها الدعاية وتهتك عنها الدمار أستار الخداع .

الراديو يكاد ينفجر من هول ما يذيع وزين العابدين والحاج والي والرهط الآخرون صامتون لا تتحرك لسانهم بكلمة وان ثارت في نفوسهم عواصف من الاحاديث ، ولكنهم في لحظتهم تلك كانوا يريدون ان يسكتوا لا ليستمعوا فحسب وانما لانهم وجدوا من الصمت ستارا يحجون وراءه القلق الراعد بين جنوبهم وانتهى المذيع من اخباره وشمل الصمت الكون أجمعه حولهم لحظات وظلوا هم في دوامة من صمتهم ، وما لبث الراديو ان عاد الى الحديث مرة أخرى « تسمعون الآن اغنية الأمر الصنائع شعر حسين شجاعه غناء بحوى مصطفى » ولم يكن الحاج والي يتوقع ان يسمع اسم رديفه مذاعا وشعره غناء فاحس كأن الدنيا حوله تهتز وسرعان ما تصاعد الصياب أمام عينيه ثم راح ينحاب طبقة بعد طبقة حتى لم يبق الا هلالة رقيقة من الضباب وجاءت الانغام وولكيت الآلات اللحن ونظر الحاج والي الى زين العابدين والآخرين فوجدهم ناظرين اليه وعلى فم كل منهم ابتسامة كأنه يهنئه بها ، وانعم النظر الى الوجوه وقد راحت موجة الذعر تنحسر عنها شيئا فشيئا فهم يتمتمون بما يسمعون بل ان بعضهم يمصمص شفتيه وآخر منهم يقول « الله ، الله » وزين العابدين يهز رأسه واصبحت الغرفة الحانا وانحسر عن هذه الحجرة من العالم قلق الحرب الفزوع فالنفوس ترف مع النغم والقلوب تتفتح آمالا،

وتسترجع الذكريات ، والدنيا هنا في هذه الحجرة ـ دنيا ودور فيها حب وفيها متعة وفيها سرور وعلى الارض ... هذه الارض من هذه الحجرة السلام.

واسهبت الاضية ، وراح الحاج والي ينظر الى زين العابدين ينتظر منه ان يقول كلمة . وقالها زين العابدين آخر الامر .

ـ الشعر هائل يا حاج والي

وتصاعدت بعد هذه الجملة احاديث الاصحاب من الجالسين . وأحس الحاج والي نفسه الصدئة تنفع في السعادة ودار الحديث بعد ذلك عن الاضية والشعر وفكر الحاج والي وهو في دوامة الفرح كيف اصبح الحديث مشرقا وبهيجا بعد ان كانت ريح الحرب القاتلة هي التي تسيطر عليهم . واحس الحاج والي انه يريد ان يصبح وحيدا فهو يستأذن ويقوم الى الطريق المنفرد من القرية ... الى الليل ... لليل القرية الذي يشيع الوحدة في النفس بصورة تسحر عنها في اي مكان آخر ... ومشى الحاج والي لا يسمع الا انفاس الليل حتى لقد نفت مسامعه عنه صرير الصراصير ، ونقيق الضفادع ونباح الكلاب فليس ثمة من حوله الا انفاس الليل في القرية وتلك الرائحة التي تنتشر في امسيات الريف رائحة الاعشاب الخضراء وهي تحترق اختلطت برائحة الندى وقد استقر على أوراق الشجر . وكان الحاج والي وهو سائر يشق سحابات من الضباب لا يدري اهي التي تعود أن تتراكم امام عينيه أم انها سحابات آتية من العشب الاخضر المحترق .

نعم ان حسين لم يعد يسأل عنه ، وهو منذ حصل على مرتب من وظيفته قطع ما بينهما قطعة توشك ان تكون كاملة ، ونعم ان حسين عرف مرات كثيرة بمرض الحاجة بعينه وبمرض الحاج والي فلم يكلف نفسه عناء خطاب يرسله ، ونعم ... انه لا يزور حتى أخاه في القاهرة. ولكن مهما يقطع حسين ما بينه وبين الحاج بل ما بينه وبين اخيه ، الا انه لا يستطيع أن ينكر ان الحاج والي هو الذي حمل منه هذا الانسان الذي يذيع الراديو اسمه وتغنى له المطربات ، لا مهرب له من هذا وان جهد هو أن يهرب من ماضيه ...

وعادا كنت أريد منه ... فليأخذ طريقه في الحياة موفق الخطوات فلا والله ما تمنيت عنده شيئا ... ولا السؤال ... لا ولا السؤال يكفيني منه أن يسعد الناس مثلما أسعد اليوم زين العابدين بك ومن كان معه . ومثلما اسعدني ... نعم لقد اسعدني .

ومضى الحاج والي يشق الضباب ورائحة العشب الاخضر المحترق المختلطة برائحة الندى تلاحقه غير ملتفت ولا عابىء بصرير الصراصير ولا بنقيق الضفادع او نباح الكلاب .

(النقطة في العدد القادم)